

المدخل الاجتماعي – التاريخي في الدراسات النفسية

د. سليمان الخصري الشيخ
كلية التربية – جامعة عين شمس

النظرية والتجريب وجهان متلازمان للمنهج العلمي التجريبي ، لا غنى لاحدهما عن الآخر : النظرية تقود التجربة وتوجهها والتجربة تنمي النظرية وتزيدها عمقا وثراء ودقة . تلك حقيقة يدركها كل مشتغل بالبحث العلمي عامة ، وكل مشتغل بالبحوث النفسية بشكل خاص . فتعقيد الظواهر النفسية وتشابك العوامل المحددة لها ، يجعل من العسير ، ان لم يكن مستحيلا ، الاقبال على دراستها دون تصور – ولو مبدئي – عن طبيعتها . ويؤدي هذا التصور النظري وظائف اساسية في توجيه البحث التجريبي ، وتحديد متغيراته ، وتفسير النتائج التي يتوصل اليها الباحث ، كما انه يحدد المنهج الذي ينبغي عليه في الدراسة .

لهذا كان لابد لاي مقبل على البحث النفسي من ان يكون لديه اجابة مبدئية عن بعض التساؤلات ، مثل : ما هي الظاهرة النفسية ، ما طبيعتها ؟ وما هي محدداتها ؟ او ما هي العوامل المسؤولة عنها ؟ وما علاقتها بغيرها من الظواهر ؟ وما منهج دراستها ؟ وما الادوات التي يمكن استخدامها في ذلك ؟

في الاجابة على هذه التساؤلات يختلف علماء النفس . ونتيجة لهذا الاختلاف نشأت المدارس المعروفة في تاريخ هذا العلم مثل السلوكية والجشطلت وغيرهما . ونحن نقدم في الدراسة الحالية وجهة نظر عرفت باسم « المدخل الاجتماعي التاريخي » في فهم الظاهرة النفسية الانسانية ودراستها ، وهو ذلك المدخل الذي يمثل اساسا نظريا تنطلق منه البحوث والدراسات النفسية في الاتحاد السوفيتي .

فما هو المدخل الاجتماعي التاريخي ؟ كيف نشأ وتطور ؟ ما هي اهم الاسس التي يستند اليها ؟

فيجوتسكي والنظرية الثقافية :

لقد تمثلت مشكلة علم النفس السوفيتي الاساسية عند محاولة

اعادة بنائه للمرة الثانية بعد الثورة الاشتراكية الكبرى - وكان ذلك في نهاية العشرينات من هذا القرن - في ضرورة الوصول الى تحقيق هدفين : (١)

الاول : هو التغلب على الذاتية والمثالية في علم النفس ، والقضاء على محاولاتها لانتزاع الظاهرة النفسية من الحياة العملية للانسان ، باعتباره كائنا اجتماعيا .

والثاني هو ضرورة القضاء على الميكانيكية في فهم الانسان ، وهي التي تمثلت في علم الانعكاسات (الرفلكسولوجيا) وعلم النفس السلوكي باتجاهاته المختلفة ، والتي كان من نتيجتها تجاهل اهم خصائص الظاهرة النفسية الانسانية وهو الوعي الانساني .

كان نمو المدخل الاجتماعي التاريخي ابتداء من هذه الفترة ، بمثابة محاولة لمواجهة هذه المشكلة الرئيسية التي تصدى لها العلماء السوفييت ، استهدفت ابتكار مدخل موحد لفهم سيكلوجية الانسان . ويرجع الفضل الى ل.س. فيجوتسكي في وضع اللبنة الاولى في هذا الاتجاه . فقد كان اول من طالب عام ١٩٢٧ بأن يكون المدخل التاريخي مبدأ موجهها في الدراسات النفسية . وقد نقد الاتجاهات البيولوجية في علم النفس ووضع في مقابلها نظريته التي عرفت باسم « النظرية التاريخية الثقافية » (٢) * .

اوضح فيجوتسكي في مؤلفاته المبكرة ، ان الخطأ الاساسي الذي وقعت فيه كل من الاتجاهات السلوكية والمثالية يتمثل في الفصل بين الظاهرة النفسية والسلوك . فقد حاول المثاليون دراسة الوعي او الشعور بدون السلوك ، بينما دعا السلوكيون الى دراسة السلوك ، مهملين الوعي الانساني ، والواقع - كما اكد فيجوتسكي - ان الوعي دون سلوك لا وجود له ، كما ان السلوك لا وجود له بدون الوعي او الشعور . لهذا حاول فيجوتسكي جاهدا ان يوحد بين السلوك والوعي ، وأشار الى انه لكي نفهم الظاهرة النفسية او الوعي الانساني ، لابد ان

(١) سليمان الخضري الشيخ ، « علم النفس السوفييتي المعاصر » الطليعة ، ١٩٧٤
(١٢) ، ملحق الفلسفة والعلم .
(٢) أ.ن. ليونتييف ، « عن المدخل التاريخي في دراسة سيكلوجية الانسان » ، في كتاب : علم النفس في اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية ، المجلد الاول ، ١٩٥٩ ص ١٣ .
* جميع المراجع المذكورة في هذه الدراسة باللغة الروسية .

نخرج الى ما وراء حدودهما ، لا بد ان نتجه الى حياة الانسان العملية ذاتها ، الى شروط وجوده الملموسة . فنمو وعي الفرد يستند اساسا الى علاقاته العملية بالواقع الخارجي ، واداته هي عملية الاستيعاب - استيعاب الخبرة الاجتماعية .

كان اهتمام فيجوتسكي منصبا بالدرجة الاولى على دراسة العمليات العقلية . ولما كان من العسير دراسة هذه العمليات بعد ان تكونت فعلا واصبحت شيئا داخليا ، رأى فيجوتسكي ان منهج دراستها ينبغي ان يكون في نموها وتطورها . وقد فسر هذا على انه مدخل تاريخي في دراسة الظواهر « ... فالدراسة التاريخية لشيء ما تعني دراسته في حركة . وهذا المطلب الرئيسي للمنهج الديالكتيكي » (٢) على ان اسهامه الكبير في ذلك يتمثل في انه حاول ان يحقق في بحوثه النفسية التجريبية ، هذا المنهج التاريخي ، وفكرة اعادة تشكيل الميكانيزمات الفطرية للعمليات النفسية اثناء التطور الاجتماعي - التاريخي للفرد (٤) .

وقد ادى تطبيق المنهج التاريخي في معالجة الظواهر النفسية بفيجوتسكي الى التمييز الواضح بين نوعين اساسيين من العمليات في النمو النفسي للانسان : العمليات الطبيعية والعمليات الثقافية ، الفطرية والمكتسبة ، البيولوجية والاجتماعية . وبشكل هذا التمييز بين النوعين من العمليات والقوانين التي يخضع لها كل منها ، الفرض النظري الاساسي للنظرية التاريخية - الثقافية (٥) . وقد صاغ فيجوتسكي فرضه هذا على النحو التالي : ان سلوك الانسان المعاصر ليس نتاجا للتطور البيولوجي وحده ، ولا هو نتاج للنضج فقط ، وانما هو نتاج للتطور التاريخي ايضا . ان سلوك الانسان ، هو من ناحية ، نتاج التطور البيولوجي لانواع السلسلة الحيوانية ، والذي ادى الى ظهور الجنس البشري . وهو من ناحية اخرى نتاج لعملية التطور التاريخي ، التي عن طريقها تحول الانسان البدائي الى انسان متحضر . ولا يتطابق التطور التاريخي للسلوك مع تطوره البيولوجي ، كما ان احدهما ليس امتدادا للآخر . فكل منهما يخضع لقوانينه الخاصة (٦) . فالتطور التاريخي يعتمد اصلا على عملية الاستيعاب (او الاكتساب) ، استيعاب الفرد نتاج الحضارة او الثقافة الانسانية اثناء معاشته للآخرين .

(٢) ل.س. فيجوتسكي ، نمو الوظائف العقلية العليا . موسكو ، ١٩٦٠ . ص ٨٩ .

(٤) أ.ن. ليونتييف ، المرجع السابق .

(٥) ي.أ. بوديلوفا ، المشكلات النفسية في علم النفس السوفييتي . موسكو ،

١٩٧٢ . ص ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٦) فيجوتسكي ، المرجع السابق . ٣٨ ، ٧١

ويعني هذا بعبارة أخرى ، ان الخصائص التي تميز سيكولوجية الانسان عن سيكولوجية الحيوان تعتبر في جوهرها نتاجا لخصائص الحياة الاجتماعية ، ومن ثم فهي تشبهها وتخضع لقوانينها . فاذا سلمنا بأن اهم ما يميز النشاط الانساني هو استخدامه الادوات في تغيير البيئة الخارجية ، فاننا لا يمكن ان ننكر ان العمل الانساني ، الذي غير بشكل جذري اسلوب تكيف الانسان مع البيئة ، ارتبط بتغيرات جوهرية في سلوكه . ومن هنا ينبغي ان نبحث في سيكولوجية الانسان عن شيء ما ، يميزها عن سيكولوجية الحيوانات ، مثلما يميز استخدام الادوات العمل الانساني عن سلوك الحيوانات (٧) .

يتصف العمل الانساني باستخدام الادوات او الوسائل ، فعلاقة الانسان بالعالم المادي علاقة غير مباشرة ، تتوسطها ادوات العمل والانتاج . وبنفس الصورة تتميز سيكولوجية الانسان عن سيكولوجية الحيوان بانها غير مباشرة ، اذ ان لها وسائلها وادواتها - وهي الرموز المختلفة التي يستخدمها في تعامله مع الآخرين . وكما ان ادوات العمل والانتاج موجهة نحو الخارج ، الى التغيير في العالم المادي ، فان الرموز - وهي ادوات العمليات النفسية - موجهة نحو الداخل ، وتؤدي الى التغيير في العمليات النفسية (٨) . ويؤدي استخدام الرموز - في رأي فيجوتسكي - الى اعادة تشكيل جذري للنشاط النفسي : اذ تتحول الوظائف النفسية المباشرة ، الطبيعية والارادية ، والتي لا زالت حيوانية في جوهرها ، الى وظائف نفسية غير مباشرة ، اجتماعية - تاريخية وارادية - اي الى وظائف عقلية عليا للانسان . ويحدث هذا التحول ، لا في تطور الانسان فحسب ، وانما يحدث في نمو كل انسان ايضا (٩) .

ولكن ، كيف تتكون الرموز لدى الطفل ؟ يجب فيجوتسكي بان الرموز تكون في البداية ذات شكل مادي خارجي ، ولكنها تتحول بعد استيعابها الى صورة ذهنية غير مادية . فالطفل لا يستطيع في البداية استخدام هذه الوسائل المساعدة في تنظيم نشاطه النفسي . ولكن بتقدمه في العمر يتعلم استخدامها ، بشرط ان تقدم له في صورة اشياء مادية خارجية . ثم يكتسب الطفل ، في مرحلة تالية ، امكانية استخدام هذه

(٧) فيجوتسكي ، نفس المرجع . ص ٨٠ ، ٨١

(٨) نفس المرجع ، ص ١٦٨ .

(٩) ب.و. جاليرين ، « تطور البحث في تكوين الافعال العقلية » ، في كتاب : علم النفس في اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية . المجلد الاول ، ١٩٥٩ ، ص ٤٤١ ، ٤٤٢ .

الوسائل بينه وبين نفسه (اي ذهنيا) ، معتمدا في ذلك على خبراته الماضية . وهكذا تتكون صور النشاط العقلي الاجتماعية التاريخية كصور خارجية في البداية ، ثم تصبح بعد ذلك داخلية . واللغة عند الانسان هي النظام الاساسي من الرموز ، الذي يعمل كأداة للنشاط النفسي لدى الانسان . وهي ذاتها تمر بنفس الطريق الاساسي لاستيعاب الخبرة ، من الخارج الى الداخل . ففي البداية تستخدم اللغة في صورتها الخارجية اثناء معايشة الآخرين ، وبعد ذلك يستخدمها الطفل في صورة فردية ، في شكل لغة داخلية (١٠) .

وهكذا تظهر الرموز في البداية كأدوات مادية خارجية ، تستخدم اثناء النشاط الجماعي المشترك في تنظيم سلوك الآخرين وتوجيهه ، وبالتدريج تصبح نفسية داخلية ، تستخدم بواسطة الفرد في توجيه سلوكه وعملياته النفسية . فعن طريق الرموز يتم تغيير بنية العمليات النفسية . وهذا التغيير يؤدي الى ظهور علاقات جديدة بين الوظائف النفسية المستقلة ، وهو ما يؤدي بدوره الى اعادة تشكيل هذه الوظائف ذاتها . ويوضح فيجوتسكي ، انه اذا كان لنا ان نفهم خصائص اي عملية نفسية ، لابد ان نتجه الى تحليل بنية نظام هذه العمليات ككل . فالوعي الانساني نظام متكامل له بنية معينة . والدور الذي تلعبه اللغة لا يؤدي الى تغير في الوظائف النفسية ، كل على حدة ، وانما الى تكوين علاقات جديدة بينها .

وبهذا حاول فيجوتسكي في نظريته الثقافية التقريب بين الظاهرة النفسية والنشاط العملي الخارجي . وقد سار هذا التقريب في ثلاث خطوات رئيسية هي :

١ - معالجة خصائص النشاط العملي الخارجي باعتبارها المحددات الرئيسية لخصائص الظاهرة النفسية .

٢ - معالجة بنية الظاهرة النفسية الانسانية عن طريق التمثيل ببنية النشاط العملي الخارجي .

٣ - النظر الى الوظائف النفسية الداخلية باعتبارها عمليات تظهر اولا في النشاط الخارجي المشترك ، ثم بعد ذلك تنتقل الى الداخل . فكل عملية نفسية - بتعبير فيجوتسكي - تظهر في نمو الطفل على المسرح مرتين : في البداية كنشاط اجتماعي مشترك .. ثم كنشاط فردي ، كطريقة داخلية للتفكير ، اي كوظيفة نفسية (١١) .

(١٠) بوديلوفا ، المرجع السابق ، ص ١٣٤ ، ١٣٧ .

(١١) فيجوتسكي ، المرجع السابق ، ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

فالنشاط العملي الخارجي هو المصدر الذي تنشأ منه الاشكال النفسية الداخلية للنشاط . وقد عبر عن ذلك في اعادة صياغته لموقف ماركس المشهور « ان الطبيعة النفسية للانسان تشمل جميع العلاقات الاجتماعية التي نقلت من الخارج الى الداخل واصبحت وظائف للشخصية واشكالا لبنيتها » (١٢) .

الا ان فيجوتسكي ، بعد ان وضع اسس مبدأ وحدة الوعي والنشاط ومدخل دراسة سيكولوجية الانسان باعتبارها اجتماعية بطبيعتها ، فانه لم يستطع تجسيد هذه الاسس في بحوثه التجريبية ، الا فيما يتعلق بأداة النشاط النفسي - وهي الرموز . اما العمليات النفسية ذاتها فقد ظل ينظر اليها على انها عمليات داخلية . وادى به ولعه باللغة الى الوقوع في مخطط العقلانية التي حارب ضدها فقد بدأ من شعار « في البداية كان العمل » ، الا انه وصل الى نتيجة ان « اللفظ هو الخاتمة التي تتوج العمل » (١٣) . فهو باعطائه الرموز أهمية كبرى ، اوضح انها تستطيع ان تؤدي وظائفها فقط ، لانها تعتبر انعكاسا لشيء ما ، له معنى او مغزى لدى الانسان . ومن هنا اصبح الشيء الهام من الناحية السيكلوجية هو معنى اللفظ - اي مفهومه (عند فيجوتسكي) . ثم فان عملية نمو الظاهرة النفسية ما هي في الواقع الا عملية نمو المفاهيم والمعاني ، والمدخل لدراسة بنية الوعي هو اللغة . وبالتالي تنحصر مشكلة البحث النفسي في تتبع ، كيف تكتسب الالفاظ معانيها بالتدريج .

ان مستوى نمو المفاهيم اصبح - عند فيجوتسكي - هو المحدد الاساسي لانعكاس العالم عند الطفل ، أي لفهمه له وامكانات نشاطه العملي فيه . فالمفاهيم هي التي توضح للطفل علاقات الاشياء ببعضها ، وطرق التعامل معها ، وهذه الطرق هي التي تحدد سلوكه . وتنمو المفاهيم عند الطفل اثناء معاشته للراشدين . وهنا ظهرت في نظرية فيجوتسكي خطورة فقدان العلاقات الحياتية للانسان بالواقع الخارجي باعتبارها محدّدات نمو الوعي عنده . فنمو الطفل النفسي لا يحدث نتيجة تفاعله فعليا مع عالم الاشياء ، وانما يحدث نتيجة تفاعل مع الوعي اي وعي الطفل مع وعي الراشد ، اثناء المعاشة (١٤) . وهكذا كان بحث دور « الادوات » في تكوين سيكولوجية الانسان وسيلة فيجوتسكي

(١٢) نفس المرجع والصفحة .

(١٣) ن.ف.تاليزينا ، الاسس النفسية لتوجيه اكتساب المعلومات . رسالة

دكتوراه . موسكو ، ١٩٦٩ ، ص ٢٣٠ .

(١٤) جالبرين ، المرجع السابق ص ٤٤٢

في تحقيق امله في اخراج الوعي من الحلقة المفرغة ، وشرح جوهره بالرجوع الى العوامل الخارجية المحددة له . الا ان « الاداة » المنتزعة من النشاط بولغ في اهميتها ، مما ادى في الواقع الى افتقار النشاط وهو ما ادى بدوره الى العقلانية والعودة للانغلاق داخل الوعي . فالمعنى باعتباره وحدة وعي الفرد ، اصبح هو المحدد لسيكولوجية الانسان ومستوى نموها .

هذا بالاضافة الى ان فيجوتسكي ، في توضيحه للطبيعة الاجتماعية لسيكولوجية الانسان وضع العمليات النفسية البيولوجية في تقابل حاد مع العمليات النفسية الاجتماعية . بعبارة اخرى ، لم يستطع فيجوتسكي التغلب على الثنائية المعروفة في العوامل المحددة للظاهرة النفسية : العوامل البيولوجية والعوامل الاجتماعية . فهو لم يفهم العلاقة بين ما هو اجتماعي من ناحية وما هو بيولوجي من ناحية اخرى ، على انها علاقة العوامل المحددة والمحركة بالشروط اللازمة لتحقيقها في الحياة ، وانما فهمها على انها علاقة بين قوتين محركتين ، حيث تستبدل احدهما (الاجتماعية) بالآخرى (البيولوجية) . ومعنى هذا ان العوامل الاجتماعية لا تنشيء العمليات النفسية من البداية ، وانما هي تعيد تشكيلها فقط ، اي تجعلها اجتماعية . وهي نفس فكرة التطبيع الاجتماعي الشائعة في علم النفس (١٥) .

وللانصاف ، فان فيجوتسكي لم يصل الى هذه النتائج ، او على الاقل لم يعبر عنها صراحة . وانما كانت بمثابة مترتبات يمكن استنتاجها منطقيا من مواقفه الصريحة .

ليونتييف والمدخل الاجتماعي - التاريخي :

على ان رفض علماء النفس السوفيت لهذه الافكار لم يكن تخليا عن المبادئ الاساسية التي حاول فيجوتسكي تحقيقها في علم النفس . وانما حاولوا التغلب على تلك الاخطاء التي وقع فيها ، وكان ذلك بالدرجة الاولى ثمرة جهد عالين بارزين هما : س.ل روبنشتين ، و.ا.ن. ليونتييف (عميد كلية علم النفس الحالي بجامعة موسكو) ومعاونوهما .

فقد طرح روبنشتين على بساط البحث من جديد مشكلة موضوع علم النفس ، وحاول ان يستخدم في مواجهتها بعض افكار ماركس عن النشاط الانساني . وفي البداية اقترح اعتبار النشاط موضوعا لعلم النفس ، الا انه عاد فيما بعد ليقرر ان موضوع العلم ليس هو النشاط

(١٥) تاليزنيا ، المرجع السابق ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

في حد ذاته وانما خصائصه النفسية . ولم يكن هذا تخليا من روبنشتين عن النشاط كموضوع لعلم النفس ، وانما رفع مرة اخرى شعار وحدة الظاهرة النفسية والنشاط . ففي كتابه أسس علم النفس العام الذي صدر عام ١٩٤٠ ابرز فكرة العلماء السوفيت عن ان الظاهرة النفسية ماهي الا انعكاس للعالم الواقعي . هذا الانعكاس ليس عملية سلبية ، وانما هو انعكاس يحدث في عملية التفاعل النشط بين الانسان وبين الظواهر الطبيعية والاجتماعية ، أي يحدث اثناء النشاط العلمي الملموس .

فالعلاقة بين وعي الانسان ونشاطه العلمي ، لا يمكن تناولها على انها علاقة خارجية بسيطة بين شيئين ، ولا على انها علاقة تطابق ، وانما ينبغي ان ينظر اليها وحدة . فالنشاط والظاهرة النفسية شيء واحد . وخلص في تحليله الى ثلاث افكار رئيسية : تتعلق الاولى بدور النشاط العلمي والنظري للانسان في تكوين سيكلوجيته . وتقرر الثانية ان العالم المادي الذي يعد نتاجا لنشاط الانسان ، يحدد نمو سيكلوجيته ، اما الفكرة الثالثة والاخيرة فتوضح ان الظاهرة النفسية الانسانية هي في صميمها نتاج للتطور التاريخي .

على ان اعلان مبدا وحدة الوعي والنشاط ، الظاهرة النفسية والسلوك ، لم يكن في حد ذاته كفيلا بالقضاء على الثنائية المعروفة في تاريخ علم النفس . وانما كان لابد من اكتشاف جوهر هذه الوحدة ، والبرهنة عليها تجريبيا ونظريا . وقد حاول أ.ن. ليونتييف ومعاونوه التصدي لهذه المشكلة .

النشاط والظاهرة النفسية :

في مؤلفات ليونتييف ومعاونيه تمثل الامتداد المباشر للخط النظري الذي بداه فيجوتسكي . وكان الموقف الاساس الذي قدمه ليونتييف في مقابل نظرية فيجوتسكي الثقافية ، يتمثل في انه ليست المفاهيم (وبالتالي ليست المعاني ولا الرموز) هي التي تحدد نمو وعي الانسان وتطور وظائفه النفسية ، وانما الذي يحددها ويوجهها هو النشاط العلمي الذي يربط بين الفرد والواقع المحيط به .

لم يتناول ليونتييف الظواهر النفسية باعتبارها ظواهرات مصاحبة **Epiphenomena** لحياة الكائن ، او كظواهرات تؤثر في هذه الحياة وانما تناولها باعتبارها عمليات تحقيق ذاتها ، وتمثل مرحلة من مراحل تطور هذه الحياة . وقد اوضح في معالجته للعلاقات المتبادلة بين الكائن

الحي والبيئة المحيطة به ، ان نفس منطق تطورها ادى الى حتمية نشأة الظاهرة النفسية .

بعبارة اخرى ينطلق ليونتييف ، اثناء معالجته لمشكلة العلاقة بين الظاهرة النفسية والنشاط العملي من موقف ماركس مؤداه ، ان الظاهرة النفسية نشأت اثناء تطور الحياة العملية ذاتها باعتبارها احدى مراحلها . فالظاهرة النفسية ليست شيئا مضافا للحياة - اي الى نشاط الكائن الحي - وانما هي شكل من اشكال هذا النشاط الحيائي ذاته ، ظهرت في مرحلة معينة من تطوره .

وقد اقترح ليونتييف ، كمعيار موضوعي لظهور هذا الشكل المحدد للنشاط الحيائي (اي الظاهرة النفسية) ، وجود القابلية للاستثارة بواسطة مثيرات بيئية ليس لها اهمية حياتية مباشرة للكائن الحي (اي لا تشبع حاجة بيولوجية بشكل مباشر) ، وانما يستثار بها نتيجة لانها ذات علاقة بمثيرات اخرى ذات اهمية بيولوجية مباشرة . فهذه تؤدي وظيفة الاشارات التي تتوسط علاقة الكائن الحي بتلك المثيرات (١٥) .

استطاع ليونتييف من تحليله للمعطيات التجريبية التي توصل اليها علماء النفس الآخرون والتي توصل اليها في بحوثه الخاصة ان يستخلص ثلاث مراحل اساسية في تطور الظاهرة النفسية آخذا في اعتباره البنية الموضوعية لنشاط الكائن الحي ، ذلك النشاط الذي يربط بينه وبين البيئة المحيطة ، ويحدد صورة انعكاس Reflexion الواقع لديه . وهذه المراحل هي : مرحلة الظاهرة النفسية الحسية البسيطة ، ومرحلة الظاهرة النفسية الإدراكية ، ثم المرحلة العقلية . « ان تطور هذه الاشكال من الانعكاس النفسي يحدث مع تعقد بنية الكائنات الحية ، وكنيجة لتطور ذلك النشاط الذي تظهر معه . ومن ثم فان التحليل العلمي لها غير ممكن الا على اساس معالجة نشاط الحيوانات ذاته » (١٩) .

ان تغير شروط الوجود يؤدي بدوره الى تغيرات في شكل الانعكاس النفسي للواقع الخارجي لدى الكائن . على انه لا يوجد ارتباط مباشر بين تطور اشكال الانعكاس وتطور بنية النشاط . فأشكال الانعكاس تتأخر نسبيا عن تطور بنية النشاط .

(١٦) أ.ف. بتروفسكي ، تاريخ علم النفس السوفييتي . موسكو ، ١٩٦٧ ص ٣١٩ ، ٣٢١ .

(١٧) بوديلوفا ، المرجع السابق ، ص ١٥٧ .

(١٨) أ.ن ليونتييف ، مشكلات نمو الظاهرة النفسية ، الطبعة الثالثة . موسكو ،

١٩٧٢ ص ٢١٠ .

(١٩) نفس المرجع والصفحة .

نشاط الحيوان - ونشاط الانسان :

ان تطور بنية نشاط الحيوانات واشكالها المختلفة تظل من وجهة نظر ليونتييف في حدود القوانين الفيزيية البيولوجية . اما النشاط الانساني الذي يحدد خصائص سيكلوجيته فهو العمل الذي لا يخضع للعلاقات الطبيعية ، وانما تحكمه العلاقات الاجتماعية .

واول ما يتميز به نشاط الحيوانات عن نشاط الانسان ، انه نشاط بيولوجي غريزي . بعبارة اخرى ، يحدث نشاط الحيوان فقط في علاقة بموضوع حاجة بيولوجية حيوية ، او بموضوع او موقف يرتبط باشباع حاجة بيولوجية محددة (٢٠) . ونتيجة لهذا فان امكانيات انعكاس الواقع المحيط محدودة لديه . ذلك انه يدرك من موضوعات البيئة تلك الاشياء التي تتصل باشباع حاجاته البيولوجية فقط (٢١) . فكل ما هو غير مرتبط بالحاجات البيولوجية لا يتم انعكاسه اي لا وجود له بالنسبة للحيوان . ومن ثم لا يوجد لدى الحيوانات انعكاس موضوعي ثابت للعالم الخارج .

كما يتميز نشاط الحيوان ايضا بتطابق دافع النشاط دائما مع هدفه (اي الموضوع الذي يوجه اليه النشاط) . ويرجع ذلك الى ان علاقة الحيوان بالموضوع الخارجي لا تنفصل عن هذا الموضوع ، اي لا توجد بذاتها . وهذا هو ما يفسر انعدام النشاط الاجتماعي المشترك عند الحيوانات ، وهو ذلك النشاط القائم على تقسيم العمل (٢٢) .

وثمة خاصية اخرى تتميز بها سيكلوجية الحيوانات عن سيكلوجية الانسان . وتتمثل هذه الخاصية في ان علاقات الحيوان بذاته ، تشبه بشكل جوهري علاقاته بالموضوعات الخارجية الاخرى . ويعني هذا انعدام وعي الحيوان بذاته في مواجهة الاشياء الخارجية . ويفسر ليونتييف ذلك برده الى انعدام الحياة الاجتماعية عند الحيوانات . فنحن قد نلاحظ مجموعة من الحيوانات تسير معا الا اننا لا نستطيع ان نلاحظ بينها بأي حال نشاطا مشتركا ، بالمعنى الذي نقصده عندما نتحدث عن النشاط الانساني المشترك . فلو وضعنا مثلا امام مجموعة من القرود مشكلة تتطلب وضع صناديق فوق بعضها للحصول على موز معلق في السقف ، فاننا نلاحظ ان كل قرد يسلك بطريقة لا تضع في اعتبارها ما يقوم به القرود الاخرى (٢٣) .

(٢٠) نفس المرجع ص ٢٥٥ .

(٢١) نفس المرجع ص ٢٥٧ .

(٢٢) نفس المرجع ص ٢٥٨ .

(٢٣) نفس المرجع ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

وبنفس الصورة اتجه ليونتييف الى معالجة بنية النشاط الانساني وتحليلها ، باعتبارها المدخل لفهم سيكلوجية الانسان . ويرى ليونتييف ان النشاط الانساني يختلف عن نشاط الحيوانات في بنيته اختلافا جوهريا . فالعمل ، كنشاط مميز للانسان ، لا يتميز باعتماده على استخدام الادوات فحسب ، وانما بطبيعته الاجتماعية ايضا . فعلاقة الانسان الفرد بالعالم الخارجي ليست مباشرة ، وانما تتوسطها ادوات العمل والانتاج من ناحية ، وكذلك نشاط الافراد الاخرين الذين يرتبطون معه بعلاقات انتاجية من ناحية اخرى (٢٤) . وقد ادى تقسيم العمل بين مجموعة من الافراد لأول مرة الى انفصال دافع النشاط عن هدفه (اي موضوعه الخارجي) ، وهو ما ادى بدوره الى ظهور الوعي الانساني . فما يدفع الفرد المعين الى انجاز عمل معين اثناء العمل المشترك ، يمكن ان يصل اليه في حالة واحدة فقط ، وهي ان يؤدي كل فرد مشترك في هذا العمل الجماعي الجزء المخصص له . وكل فرد يؤدي نصيبه من العمل لانه يعي العلاقة بين عمله وما يؤدي اليه العمل الجماعي ويتصورها ذهنيا . ومثال ذلك ، اننا اذا تصورنا مجموعة من الصيادين ، خرجوا لصيد الحيوانات ، فانهم يقسمون العمل بينهم . وقد يكون نصيب احدهم من العمل ، ان يتولى مطاردة قطع من الحيوانات في اتجاه معين ، حيث يختبئ باقي الصيادين ، الذين ينتظرونها لاقتناصها . من الواضح في هذا المثال ، ان هذا الفرد مدفوع للقيام بهذا العمل ، لانه يريد اشباع حاجته الى الطعام . الا ان الموضوع الذي ينصب عليه عمله ، وهو دفع الحيوانات بعيدا عنه ، لا يمكن ان يشبع تلك الحاجة بأي شكل من الاشكال . انه يشبعها في حالة واحدة فقط ، وهي ان يقوم باقي الافراد بأداء الاعمال التي كلفوا بها . وهذا يعني ان هدف النشاط في هذه الحالة منفصل عن دافعه . وبديهي ان الفرد يعي العلاقة بين عمله واشباع حاجته (٢٥) .

ومع التطور الحضاري ، ادى تقسيم العمل تدريجيا الى تقسيم النشاط الى عقلي ذهني وفيزيقي او يدوي . فتحول جزء من النشاط المادي الخارجي الى نشاط ذهني داخلي . الا انه باتخاذ شكل جديد لوجوده لا ينفي عنه صفة كونه نشاطا ، بمعنى انه لا يتوقف عن ان يكون عمليات موجهة نحو حل المشكلات الحياتية التي تظهر اثناء تفاعل الفرد مع العالم . انه لن يصبح نفسيا بحثا ، يوضع في تقابل مع النشاط

(٢٤) نفس المرجع ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .
(٢٥) نفس المرجع السابق ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

العملي الخارجي ، اي انه لا يوجد شيان مختلفان : الوعي والنشاط العملي ، الظاهرة النفسية والسلوك ، وانما يوجد شكلان لشيء واحد هو النشاط . واحدى الصورتين وليدة للآخرى . وهما يعبران عن علاقة الانسان بالعالم المحيط به ، ويعكسان وحدة حياة الانسان التي تظهر في صورتين : مادية وذهنية .

ولما كان النشاط النفسي لا يختلف عن النشاط المادي الخارجي في بنيته ، فإن المكونات الاساسية لكل منهما قد تتحول من صورة لآخرى وقد يتكون النشاط الواحد من مكونات نفسية ومكونات مادية . فالنشاط العملي الخارجي يتضمن في داخله افعالا وعمليات عقلية او ذهنية داخلية . على ان النشاط المادي هو الاسبق دائما في الوجود ، سواء في تطور الجنس البشري ، او في نمو الانسان الفرد . وقد رأى علماء النفس السوفييت في هذا تحقيقا لموقف ماركس المشهور عن ان العقل ما هو الا شيء مادي انتقل الى رأس الانسان واعيد تشكيله فيها .

وهكذا تطلبت نشأة الحياة الاجتماعية القائمة على العمل ، ظهور شكل جديد للظاهرة النفسية ، يوفر انعكاسا موضوعيا للعلاقة بين دافع الفعل وهدفه المباشر لدى الفرد . وهذا الشكل من اشكال الانعكاس هو ما يعرف بالوعي الانساني .

ويتميز هذا الانعكاس الواعي عن الانعكاس النفسي الذي يوجد لدى الحيوانات بأنه انعكاس للواقع المادي مستقلا عن علاقات الفرد بهذا الواقع ، بمعنى انه انعكاس للخصائص الموضوعية الثابتة لهذا الواقع . كما ان صورة هذا الواقع لا تذوب في مشاعر الفرد . ويعني هذا ان الفرد حينما يعي كتابا معينا - على سبيل المثال - او يكون لديه فكرة عن هذا الكتاب ، فإن الكتاب او فكرة الفرد عنه لا تذوب في مشاعر الفرد اثناء وعيه به . هذا بالاضافة الى ان بروز الشيء الواقعي في وعي الفرد يؤدي الى بروز المشاعر الداخلية لدى الفرد من ناحية اخرى ، وهو ما يمكن من وجود الملاحظة الذاتية او الاستبطان (٢٦) .

مكونات النشاط الانساني :

ويستخدم ليونتييف في معالجته لبنية النشاط الانساني مجموعة من المفاهيم اهمها : النشاط ، الفعل ، العملية ، الهدف ، الدافع ، وتستحق هذه المفاهيم ان نقف عندها قليلا حتى تتضح الفروق بينها

وعلاقتها ببعضها .

يتصور ليونتييف ان لكل نشاط «هدفا» و «دافعا» . ولم يكن تصويره لهذين المفهومين على انهما مشاعر ذاتية داخلية لدى الانسان ، وانما تصورهما في صورة مادية خارجية توجه الفرد اثناء تفاعله مع العالم الخارجي . فهدف النشاط هو الموضوع الخارجي الذي ينصب عليه عمل الانسان . كذلك كان الدافع ، ليس مجرد حاجة داخلية لدى الفرد ، وانما هو حاجة مجسدة في شيء خارجي ، هو الذي يستثير النشاط اصلا . يقول ليونتييف « نحن نسمي موضوع الحاجة بالدافع سواء كان هذا الموضوع ماديا ام معنويا ، موجودا في الادراك الحسي المباشر او معطى في التصور الذهني » (٢٧) .

اما النشاط ذاته فيعرفه ليونتييف بانه مجموعة العمليات التي يقوم بها الفرد اثناء تفاعله مع العالم ، وتشبع حاجة معينة لديه ، اما العمليات التي لا تشبع حاجة معينة فلا يسميها نشاطا . فمثلا عملية التذكر ، لا تعتبر من وجهة نظره نشاطا بالمعنى الدقيق ، ذلك لانها لا تحقق بذاتها تفاعلا مع العالم الخارجي ولا تشبع حاجة معينة . ويزيد ليونتييف الامر تحديدا ، حينما يقصر مصطلح « النشاط » على ما يقوم به الفرد من عمل ، بشرط ان ينطبق دافعه على الموضوع الذي يتجه اليه . ويضرب لذلك المثال التالي : تلميذ يقرأ في كتاب للتاريخ استعدادا للامتحان ، هل يسمى هذا نشاطا ؟ يجيب ليونتييف باننا لا نستطيع ان نجيب اجابة مباشرة قبل ان نقوم بتحليل سيكولوجي لما يقوم به التلميذ . فلو فرض ان زميلا له دخل عليه اثناء القراءة واخبره بان هذا الكتاب غير لازم للامتحان ، فانه قد يتصرف بأكثر من طريقة . فهو اما ان يلقي بالكتاب جانبا فورا ، فرحا وغير آسف عليه . واما ان يلقيه جانبا مع التعبير عن أسفه لذلك . واما ان يستمر في قراءة الكتاب . ويرى ليونتييف ان محتوى الكتاب في الحالتين الاخيرتين يعمل في حد ذاته كدافع للقراءة ، اي ان القراءة تشبع حاجة معينة للتلميذ . وهنا يمكن ان نسمي عملية القراءة «نشاطا» ، ذلك لان الدافع انطبق على موضوع العمل الذي يقوم به .

اما في الحالة الاولى ، فأن ما كان يقوم به التلميذ « فعل » كما يسميه ليونتييف . والسبب في ذلك ان التلميذ كان يقرأ لكي يؤدي الامتحان فقط ، اي ان الدافع للقراءة ليس الاستمتاع بقراءة الكتاب

(٢٧) أ.ن. ليونتييف ، الحاجات والدوافع والمواقف . موسكو ، ١٩٧١ . ص ١٣ .

وانما هو الرغبة في اداء الامتحان . ومن ثم فان ما يسمى نشاطا في هذه الحالة هو الاستعداد للامتحان ، وليست القراءة في حد ذاتها . اما القراءة فلا يمكن ان تسمى نشاطا .

فالعمل بهذا المعنى هو عملية لا ينطبق دافعها مع الموضوع الذي تنصب عليه ، وانما يكمن دافعها في ذلك النشاط الذي يدخل هذا الفعل كجزء منه . ففي الحالة الاولى من المثال السابق لم يكن الدافع للقراءة منطبقا على موضوعها (وهو استيعاب محتوى الكتاب) ، وانما كان ضرورة اداء الامتحان . ولما كان موضوع الفعل لا يؤدي في حد ذاته لان يقوم الفرد بعمل ما ، كان لابد لكي يظهر ، من ان تبرز امام الفرد العلاقة بين موضوع الفعل ودافع النشاط الذي يعتبر الفعل جزءا منه . مثل هذه العلاقة تنعكس لدى الفرد في شكل معين من اشكال الانعكاس النفسي، هو ما نسميه الوعي بموضوع النشاط « كهدف » . وبهذا ، فموضوع الفعل ما هو الا هدفه المباشر الذي يعيه الفرد (وهو استيعاب محتوى الكتاب في المثال السابق وله علاقة مباشرة بدافع النشاط ، وهو الرغبة في اداء الامتحان) .

وثمة علاقة خاصة بين الفعل والنشاط . فقد يتحرك دافع النشاط لينطبق على موضوع الفعل . ونتيجة لهذا يصبح الفعل نشاطا . ففي المثال السابق قد تصبح قراءة الكتاب بمرور الوقت في حد ذاتها دافعا ، رغم انها كانت في البداية وسيلة لاشباع حاجة اخرى او دافع اخر . ويرى ليونتييف ان هذه اللحظة حاسمة في حياة الفرد ، اذ تمثل الميكانيزم السيكلوجي لانتقال دوافع الطفل من مرحلة نمو نفسي الى مرحلة اخرى ، ويجب ان تعمل التربية على استغلالها(٢٨).

اما مفهوم العملية ، فيطلقه ليونتييف على الطريقة التي ينفذ بها الفعل ، وبديهي انها تختلف باختلاف الشروط الخارجية او المواقف التي يحدث فيها الفعل . فهي تتميز بانها تستجيب للشروط والظروف المادية التي تحيط بالهدف .

استيعاب الخبرة :

لا شك انه لازال منتشرا بدرجة واسعة تصور التطور الارتقائي للنوع الانساني على انه عملية مستمرة تخضع لنفس قوانين التطور البيولوجي . ويرجع هذا التصور في اصله الى نظرية التطور لدارون .

(٢٨) ليونتييف ، مشكلات نمو الظاهرة النفسية ، ص ٥٠٩ ، ٥١٢ .

وقد استند ليونتييف في تنفيذه لهذا التصور على دراسات الحفريات الحديثة .

اثبتت هذه الدراسات - كما يعرضها لونتيف - ان النوع الانساني يمثل نتاج اربع مراحل تطورية تبدأ من القردة حتى الانسان المعاصر . وتطور النوع في هذه المراحل كان يخضع اساسا للقوانين البيولوجية ، وقد حدثت فيها تغيرات مورفولوجية في التكوين العضوي للانسان . وفي هذه الفترة من التطور بدأت تظهر ادوات العمل البدائية ، والعناصر الاولى للحياة الاجتماعية . وبعد ان اصبح الانسان المعاصر مكتملا من الناحية البيولوجية ، بما يسمح له بتكوين حياة اجتماعية ، حدث تغير كيميائي جوهري ؛ اذ توقف قوانين التطور البيولوجي عن العمل ، بعد ان اصبح الانسان يمتلك كل الخصائص المورفولوجية الضرورية للتطور التاريخي الاجتماعي الذي لا حدود له . واصبح تطور النوع الانساني يخضع كلية لقوانين التطور الاجتماعي التاريخي .

ولكن هل يعني توقف قوانين التطور البيولوجي عن العمل توقف الجنس البشري عن التطور وثبوته على النمط المعاصر ؟ يجيب ليونتييف عن هذا التساؤل بالنفي . فالجنس البشري يتطور ، ولكن تراكمات هذا التطور لا تنتقل الى افراد النوع بالوراثة البيولوجية ، وانما في صورة انتقال منجزات التطور التاريخي - الاجتماعي للانسانية الى الافراد . ومن ثم فان انتقال منجزات النوع الى الافراد تظل كما هي ايضا على مستوى الانسان ، الا انها تكتسب مضمونا جديدا ، وتعتمد على ميكانيزمات جديدة (٢٩) .

ان منجزات البشرية في تطورها التاريخي ، لم تدعم في صورة خصائص مورفولوجية تنتقل بالوراثة ، وانما تجسدت في شكل خارجي خاص . ومن هنا فان قوانين التطور البيولوجي تتوقف عن التأثير ، وتفسح المجال لقوانين التطور الاجتماعي التاريخي ، التي تبشر تأثيرها في تطور الجنس البشري من ناحية ، وفي النمو النفسي للفرد من ناحية اخرى . ان منجزات هذا التطور التاريخي ، والمجسدة اصلا في منتجات مادية وروحية للنشاط الانساني ، تنتقل بواسطة عملية سيكلوجية خاصة هي عملية الاستيعاب . وهذه العملية هي الميكانيزم الرئيسي الذي يحقق لدى الفرد اهم عنصر في نموه ، وهو اعادة انتاج خصائص وقدرات الجنس البشري التي تكونت اثناء تطوره ، في قدرات

(٢٩) ليونتييف : « عن المدخل التاريخي في دراسة سيكلوجية الانسان » :

ص ١٨ ، ١٩ .

وخصائص هذا الفرد بالذات . ومن ثم فإن الميكانيزم الرئيسي للنمو النفسي للفرد يتمثل في اكتساب الفرد الخصائص والقدرات المجسدة في الموضوعات الخارجية التي انتجها الناس (٣٠) .

ويعني هذا بعبارة أخرى ان النمو النفسي للفرد يخضع اصلا للقوانين الاجتماعية ، التي تحكم نشاطه الاجتماعي وتفاعله مع منتجات الحياة الاجتماعية . ويميز ليونتييف بين هذه العملية - عملية الاستيعاب - وبين عملية التكيف الشائعة في علم النفس ، بل ويرفض استخدام مفهوم التكيف مع الانسان . فهل يمكن ان يسمى بالتكيف مع البيئة نشاط الانسان الذي يشبع حاجة معرفية لديه ؟ ان الانسان في اشباعه لحاجته في المعرفة ، يجعل من المفهوم المعين مفهوما ملكه ، اي يستوعب معناه . هذه العملية تختلف اختلافا جوهريا عن عملية التكيف او الاتزان . كذلك الحال فيما يتعلق بالموضوعات المادية المحيطة بالانسان ، والتي انتجها العمل الانساني ، مثل ادوات العمل . ان اداة العمل ليست مجرد شيء مادي ، وانما هي موضوع تجسدت فيه اجتماعيا اساليب للتعامل معه . ومن ثم فأف الفرد يستوعب (عمليا او نظريا) اسلوب التعامل المجسد فيها .

على ان الفارق الجوهري - من وجهة نظر ليونتييف - بين عمليات التكيف بمعناها الدقيق ، وعملية الاستيعاب ، يرجع الى ان عملية التكيف هي عملية تغير في خصائص وقدرات النوع المتمثلة في الفرد ، وما يرتبط بها من سلوك نوعي . اما عملية الاستيعاب فهي عملية اعادة انتاج للوظائف والقدرات ، التي تكونت تاريخيا ، لدى الفرد . ويمكن القول بأن هذه العملية تحقق لدى الانسان ما يتم تحقيقه لدى الحيوان من انتقال خصائص النوع بواسطة الوراثة (٣١) .

ثلاثة انواع من الخبرة : ولهذا يميز ليونتييف بين ثلاثة انواع من الخبرة ، لكل منها ميكانيزماتها الخاصة . فهناك الخبرة الفطرية التي تورث بيولوجيا ، وميكانيزمها الرئيسي هو الافعال المنعكسة الطبيعية والفرائز . ويتميز السلوك الذي تحكمه هذه الميكانيزمات بأن تطوره يرتبط ارتباطا وثيقا بتطور الاعضاء الخارجية . كما ان تغيره يتم عن طريق انتقاء وتجمع التغيرات الضئيلة ، ويعتبر عملية بطيئة جدا ، تستجيب للتغيرات البطيئة التي تحدث في البيئة الخارجية . والنوع الثاني هو الخبرة الفردية المكتسبة ، وميكانيزمها الافعال المنعكسة

(٣٠) نفس المرجع ص ٢٥ .

(٣١) نفس المرجع ص ٢٣ .

الشرطية ووظيفتها تحقيق التكيف الفردي . واختلافها الاساسي عن النوع السابق من السلوك ان الحيوان الفرد يرث فقط القدرة على اكتساب هذا النوع من السلوك ، اما في الخبرة النوعية فيرث السلوك ذاته . ورغم ان وظيفتها الاساسية تستجيب للتغيرات السريعة في البيئة ، الا ان تطورها مرتبط ارتباطا مباشرا بالتغيرات التي تحدث في المخ وبالتغيرات الوراثية البطيئة . هذان النوعان من الخبرة هما يشكلان ميكانيزم سلوك الحيوانات المختلفة . وهكذا يتوقف سلوك الحيوانات على خبرة مزدوجة النوع : خبرة النوع المثبتة في ميكانيزمات السلوك الفريزي الانعكاسي غير الشرطي ، وخبرة فردية مكتسبة اثناء نمو الحيوان . ووظيفة هذه الاخيرة تنحصر في تكيف السلوك النوعي مع العناصر المتغيرة للبيئة الخارجية .

على ان هناك نوعا ثالثا من الخبرة ، يتميز بها الانسان عن الحيوان انها الخبرة التاريخية الاجتماعية التي يستوعبها الفرد اثناء نموه . وهذه الخبرة ليست خبرة فردية ، اي لا تتكون اثناء حياة افراد مستقلين ؛ وانما هي خبرة نوعية ، بمعنى انها نتاج تطور اجيال كثيرة من الناس ، كما انها تنتقل من جيل الى جيل . الا انها تختلف عن الخبرة النوعية لدى الحيوانات ، في انها لا تنتقل وراثيا وفق القوانين البيولوجية ، وانما يكتسبها الفرد اثناء حياته . فهي لا توجد في التكوين العنصري الموروث للانسان وانما توجد خارجه ، في العالم الموضوعي الخارجي ، اي عالم الاشياء الانسانية التي تحيط به - وهو عالم الصناعة والعلم والفن ، وتعكس الطبيعة الانسانية الحقيقية ، ونتاج التطور الاجتماعي التاريخي . كما انها تختلف عن الخبرة الفردية الموجودة عند الحيوان ايضا في محتواها والميكانيزم الاساسي لاكتسابها . فاكتساب الخبرة التاريخية الاجتماعية يخلق اشكالا جديدة تماما من السلوك . وما يتكون لدى الانسان عن طريق هذه الخبرة من قدرات ووظائف يعتبر تكوينات نفسية جديدة ، وتعتبر الميكانيزمات الفطرية الوراثية مجرد شروط تجعل ظهورها ممكنا ، ولكنها لا تحدد محتواها ولا خصائصها (٢٢) .

وبهذا تبلورت نتيجة لهذا الاتجاه ثلاثة مبادئ اساسية ، تمثل قاعدة عريضة للبحوث النفسية التجريبية في الاتحاد السوفيتي . ويمكن تلخيص هذه المبادئ فيما يلي :

اولا : الظاهرة النفسية هي شكل خاص من اشكال النشاط .

ويعني هذا المبدأ ان الظاهرة النفسية ليست ظاهرة من ظاهرات الشعور وانما شكل للنشاط الحياتي للفرد . هي ليست مجرد صورة للعالم الخارجي ، وانما هي نشاط : نظام من العمليات والافعال . فهي تقدم حولا لمشكلات محددة يواجهها الفرد اثناء تفاعله مع العالم الخارجي .

ثانيا : الطبيعة الاجتماعية للقوانين التي تحكم النمو النفسي للانسان فقد ادت الحياة الاجتماعية للانسان لان تصبح القوانين الاجتماعية محدّدات تطوره وليست القوانين البيولوجية . فخصيّة الانسان ليست نتاجا لنمو امكانياته البيولوجية ، ولا هي تخضع لقوانينها ، وانما هي نتاج للقوانين الاجتماعية . ويعني هذا ان نمو الفرد الانساني لا يتم عن طريق تفتح الخبرة النوعية الداخلية الموروثة ، وانما عن طريق استيعاب الخبرة الاجتماعية الخارجية ، المتجسدة في اساليب الانتاج والكتب واللغة وغيرها . الانسان لا يولد بطرق جاهزة للتفكير ، او بمعلومات جاهزة عن العالم . وهو لا يكتشف قوانين التفكير او قوانين الطبيعة من جديد . وانما هو يستوعبها باعتبارها خبرة الاجيال السابقة . ولا يعني هذا انه يمكن ان يكتسب الطفل معرفة عن العالم دون ان يقوم بنشاط عملي فيه . وانما دور الجيل القديم هو في تنظيم نشاط الجيل الجديد في هذا العالم ، وعن طريق هذا النشاط تنتقل اليه خبرات المجتمع .

ثالثا : مبدأ وحدة الظاهرة النفسية والنشاط : ويسلم به كل علماء النفس السوفييت ، وهو يعني في عبارة روبنشتين : ان الظاهرة النفسية او الوعي لا تظهر في النشاط فقط ، وانما تتكون فيه ايضا . وقد رأينا كيف نمى ليونتييف هذا المبدأ ، واوضح خواص الوحدة بينهما . وقد وجد تنمية أبعد في الدراسات التجريبية المحددة التي قام باجرائها ب.ي. جاليرن ومعانوه ، حيث قدم فرض ان جميع العمليات النفسية المحددة تنمو وتتكون عند الفرد عن طريق اعادة تشكيل للنشاط المادي الخارجي ، وتحوله ذاته الى نشاط نفسي داخلي . وقد عرفت نظريته فيما بعد باسم « نظرية التكوين المرحلي للافعال العقلية » ونأمل في دراسة تالية ان نقدم عرضا موجزا لها .